الإطار التاريخي للتطور الثقافي

Mohamed Rabie

مرتّ الإنسانية خلال تاريخها على هذه الأرض بأربعة مراحل حضارية رئيسية: حضارة الرعي والتنقل القبلية، حضارة الزراعة، حضارة الصناعة، و"حضارة المعرفة" الحالية. ومع أن كل حضارة شكلت نقلة نوعية في تاريخ البشرية، إلى أن كل حضارة قامت على أكتاف نمط إنتاجي اقتصادي جديد فرض على النمط الإنتاجي القديم أن يتطور، ويتنازل عن أهم خصائصه بما في ذلك علاقات الإنتاج الاجتماعية. وهذا فرض على ثقافة كل مجتمع جديد أن تتطور وتتنازل عن جلّ خصائصها ومعطياتها المميزة كذلك. ويشير التاريخ إلى أن كل مجتمع رفض التكيف مع النمط الإنتاجي الجديد حكم عليه الزمن بالتخلف وشعوبه. ويعود السبب في هذا الأمر إلى طبيعة المسيرة التاريخية التي تصر على السير إلى الأمام دون تردد، غير معنية بالحفاظ على ثقافة أو تقليد أو علاقة أو تراث تجاوزه الزمن.

في حوالي منتصف القرن الخامس عشر، دخلت الصين وبعض المجتمعات الأوروبية مرحلة انتقال من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة. وبينما نجحت المجتمعات الأوروبية في تجاوز عصر الزراعة إلى الصناعة خلال 300 سنة تقريباً، فشلت الصين في اقتحام ذلك العصر. ويعود سبب نجاح الأوروبيين وفشل الصينيين إلى تباين قوة الثقافة ودورها في حياة كل مجتمع؛ إذ فيما أسهم شيوع الحرية الاقتصادية والاجتماعية في المدن الأوروبية في فتح المجال لبدء حراك اجتماعي وحركة إصلاح دينية واسعة مهدت السبيل لحدوث الثورة الصناعية، لم تتوفر تلك الظروف في الصين لأن ارتباط الإمبراطور الصيني بالآلهة جعل السلطة السياسية ترتبط بالسلطة الدينية والثقافة الشعبية. وفي ضوء أهمية الثقافة في تشكيل العلاقات الاجتماعية وطرق التفكير في المجتمع، فإن الحاكم في الصين رأى أن مصلحته تملي عليه التمسك بالثقافة الشعبية. وهذا جعل القوى الاجتماعية والدينية التقليدية والحاكم يتعاونون معا للحفاظ على مكونات الثقافة الكنفوشيوسية، والانعزال عن العالم والعيش في كنف حضارة الزراعة وثقافتها. لذلك لم يستطع المجتمع الصيني الانتقال إلى عصر الصناعة، بالرغم من تفوقه العلمي والتكنولوجي على أوروبا.

إلى جانب ذلك، كان المجتمع الصيني خاضعاً لسلطة مركزية فرضت سيطرتها على البلاد وحكمتها بقبضة حديدية، وهذا حال دون نمو جيوب متحررة باستطاعتها التفكير بشكل مختلف أو مخالف لأوامر المركز كما حدث في مدن أوروبا التجارية؛ إذ كانت أوروبا حينئذ مجزأة إلى دويلات، ولديها العديد من المدن التي خضعت لسلطات ذاتية خارجه عن سلطة الأمراء والكنيسة. لقد ساد حياة أوروبا في تلك العصور نظامان مختلفان، أحدهما إقطاعي والثاني مدني. وفيما تركز النشاط الزراعي في الأرياف والإقطاعيات، تركز نشاط التجار والحرفيين في المدن. وبسبب

اتجاه الكنيسة إلى إخضاع الحكام لتعاليمها، وإدانه بعض النشاطات التجارية والمعاملات المالية، فان النزاع ساد علاقة الملوك والأمراء بالكنيسة من ناحية، وعلاقة الكنيسة بالقوى الاقتصادية الفاعلة من ناحية ثانية. وهذا فتح المجال لبروز تيارات اجتماعية وثقافية غير تقليدية قامت بمناهضة فكر الكنيسة والعمل على تقويض سلطاتها الدنيوية. ولقد تسبب ذلك التطور في ميلاد تقاليد وقيم ومصالح جديدة كان لها فضل كبير في احتضان النشاطات المالية والاقتصادية التي رافقت التوسع في عمليات التجارة والتصنيع.

وبدخول أوروبا عصر الصناعة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كانت الثقافة الأوروبية وما انبثق عنها من عادات وتقاليد وقيم ونظم اجتماعية وسياسية وعلاقات إنتاج وطرق تفكير تعيش فترة تحول عميقة. ومع نضوج الثورة الصناعية في أوائل القرن العشرين، تبلور المجتمع الصناعي وتبلورت ثقافته وطريقة حياته ونمط إنتاجه، وكلها جاءت مختلفة كثيراً عما ساد حياة المجتمع الزراعي. الأمر الذي جعل المجتمعات الزراعية التي رفضت دخول عصر الصناعة تغدو مجتمعات متخلفة علميا وثقافياً عن العصر الجديد وتابعة له ولعلومه ودوله.

جوهر الثقافة عبر العصور

فرضت البيئة الطبيعية على المجتمع القبلي أن يعيش على صيد الحيوانات ورعي المواشي كالغنم والإبل، وأن يحارب غيره من قبائل كي يحصل على قوت يومه ويحافظ على بقائه. ومع الأيام، وجد الإنسان القبلي نفسه، دون أن يدري، أنه يقوم بتكريس حياته للحرب والقتال، لأنه وجد في الغزو والفروسية مصدراً للمتعة والترفيه عن النفس. ويُقال إن كل لقاء بين مجموعتين من الناس، وحتى 7500 ماضية، كان يعني قيام كل فريق بمحاولة قتل الفريق الآخر. لذلك لم يستطع الإنسان القبلي أن يتجنب الحرب، ما جعله **"يحارب ليعيش ويعيش ليحارب"**. لذلك أصبحت عمليات الغزو وما يرافقها من قتل ونهب وسبي هي جوهر ثقافة عصر القبلية، ما جعل حياة القبلي تبدأ وتنتهي بالقتال.

قبل نحو 12 ألف سنة، ظهر المجتمع الزراعي، حيث قام نمط حياته على حساب نمط حياة المجتمع القبلي. ولما كان الإنتقال إلى الزراعة قد صاحبه ظهور مجتمع جديد بثقافة جديدة واقتصاد جديد، فإن فلاحة الأرض شكلت حضارة جديدة ذات مجتمع وثقافة واقتصاد مختلف تماماً عن مجتمع وثقافة واقتصاد العصر القبلي. ومع الأيام، وجد الإنسان الزراعي نفسه، دون أن يدري، أنه يقوم بتكريس جل حياته للأكل، لأنه وجد في زراعة الأرض والعناية بالمزروعات والمشاركة في الولائم الجماعية مصدراً للمتعة والترفيه عن النفس. لذلك، كان الإنسان الزراعي **"يأكل ليعيش ويعيش ليأكل"**. الأمر الذي جعل ولائم الطعام وما يصاحبها من تجمعات وحكايات وإشاعات تصبح جوهر ثقافة عصر الزراعة، فيما جعل حياة الإنسان الزراعي تبدأ وتنتهي بالأكل.

أما عصر الصناعة الذي ظهر قبل نحو 250 سنة، وقام على حساب عصر الزراعة ونمط حياته وإنتاجه، فقد شهد تبلور مجتمع جديد وثقافة جديدة واقتصاد جديد يختلف نوعياً عن مجتمع وثقافة واقتصاد عصر الزراعة، ما جعله يبدأ حضارة جديدة هي حضارة الصناعة. لقد كان على العامل الصناعي، في ظل نظام المصنع، أن يعمل ساعات طويلة مقابل أجرة قليلة تمكنه من كسب قوت يومه والحفاظ على بقائه. ومع الأيام، وجد الإنسان الصناعي نفسه، دون أن يدري، أنه يقوم بتكريس جل حياته للعمل، لأنه وجد في العمل وعلاقاته، والإنتماء لمؤسسة إنتاجية مصدراً للمتعة ووسيلة لتكوين علاقات مع غيره من العاملين، والاستحواذ على مكانة اجتماعية. لذلك كان الإنسان الصناعي وما يزال "**يعمل ليعيش ويعيش ليعمل**". لذلك أصبح العمل جوهر ثقافة عصر الصناعة، ما جعل حياة الإنسان الصناعي تبدأ وتنتهي بالعمل.

في عصر المعرفة الحالي تبلور نمط إنتاج واقتصاد وثقافة مختلفة نوعياً عن كافة ما سبقه من مجتمعات وثقافات واقتصاديات. وهذا فرض على الإنسان المعرفي أن يتعلم كي يحصل على وظيفة ذات عائد جيد، وأن يواصل عملية التعلم كي لا يتخلف عن أقرانه من المعرفيين. ومع الأيام، وجد العامل المعرفي نفسه، دون أن يدري، أنه يقوم بتكريس جل حياته للمعرفة والعلم، لأنه وجد في التعلم والاستزادة من المعرفة وعلاقات العمل مصدراً للمتعة والترفيه عن النفس، والحصول على دخل أكبر ومكانة اجتماعية أفضل؛ وهذا فرض على الإنسان المعرفي أن "**يتعلم ليعيش ويعيش ليتعلم**". لذلك أصبحت المعرفة والحصول على المزيد منها جوهر ثقافة عصر المعرفة، كما أصبحت حياة الإنسان المعرفي تبدأ وتنتهي بالتعلم.

وإذا كانت ثقافة القبلي القائمة على الغزو والنهب والسبي قد اندثرت أو على وشك الاندثار، فإن ثقافة الإنسان الزراعي ما تزال تراوح في مكانها بعد أن انتقلت تقاليدها إلى المدن في المجتمعات التي لم تدخل عصر الصناعة، ومن بينها المجتمعات العربية والإفريقية، حيث لا يجد الناس في الأرياف والمدن نشاطاً أكثر متعة من الولائم التي تصاحب الأفراح والمآتم على السواء. أما ثقافة الإنسان الصناعي فما زالت تنتشر في مختلف بقاع العالم بسرعة، وتستخدم المصلحية أداة لجمع الثروات وتكوين علاقات العمل والعلاقات الاجتماعية. أما ثقافة الإنسان المعرفي فهي الأصغر ولكن الأسرع انتشاراً، وأنها تقوم على الفرد المعرفي الذي يتحرك بحرية كبيرة، لا تقيده قيود اجتماعية أو ثقافية أو أيديولوجية، ولا يرى استثماراً أفضل من الحصول على المعرفة وتوظيفها في مجالات تكنولوجية وخدماتية تعود عليه بفوائد مادية ومعنوية كثيرة.

ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى ما يحدث للهياكل الاجتماعية نتيجة لانقال المجتمعات الإنسانية من حضارة لأخرى. إذ فيما كانت القبيلة في المجتمع الرعوي تمثل المجتمع بكامله بسبب غياب الدولة، أصبحت العشيرة تمثل وحدة

المجتمع الزراعي الذي يتكون من عدة عشائر. وبعد انتقال الإنسان لعصر الصناعة تشتت العشائر للعمل في المصانع، ما جعل الأسرة تصبح وحدة المجتمع الذي يتكون من ملايين الأسر. ومع التحول من عصر الصناعة لعصر المعرفة، أصبح الفرد وحدة المجتمع المعرفي، وبالتالي لم يعد للهياكل الاجتماعية القديمة وجود.

وفي ختام هذا العرض السريع للتطور الحضاري، أود أن أؤكد على الأمور التالية: **أولاً**، إن كل مرحلة تطور حضاري تمثل حضارة قائمة بذاتها، وإن الحضارة هذه تأتي في أعقاب فترة انتقال صعبة تخلق أوضاعاً حياتية تتصف بالارتباك والفوضى وضبابية الرؤية. ويمكن وصف المجتمعات التي تمر بفترة انتقال حضارية ببضع كلمات جاءت على لسان أرنولد ماثيو حين قال بأنها مجتمعات "تعيش بين عالمين، أحدهما مات والثاني يعاني حالة ميلاد عسيرة". **ثانياً**، كل فترة انتقال تمثل، إذا ما نظرنا إليها عن بعد، فترة انقطاع تاريخي، يتوقف التاريخ عندها قليلاً أو طويلاً قبل أن يعاود مسيرته بروح جديدة ومنطق جديد، ما يعني أن تاريخ ومنطق كل حضارة ينتهي مع بداية فترة الانتقال التالية. **ثالثاً**، مع بداية الفترة الانتقالية ينتهي تاريخ الحضارة السابقة وتنتهي معه حكمة ذلك التاريخ ، ما يفرض على المرحلة الجديدة أن تكتب تاريخها بنفسها وتكتشف منطقه والمسار الخاص به، وتتعرف على حكمته. **رابعاً**، إن كل حضارة تفرز مجتمعها المختلف هيكلياً وثقافتها المختلفة نوعياً ونمط إنتاجها المختلف إداريا وتكنولوجياً عما سبقه من ثقافات وأنماط إنتاج. وهذا يجعل القطيعة بين الحضارة السابقة والحضارة اللاحقة شبه كاملة، فيما يجعل الثقافات القديمة والجديدة تعيش حالة اغتراب عن بعضها بعضا. **خامساً**، في اللحظة التي تتبلور فيها معالم الحضارة الجديدة، يصبح مجتمع وثقافة ونمط إنتاج الحضارة السابقة معتمداً على مجتمع وثقافة ونمط إنتاج الحضارة التالية وتابعاً له، ما يجعل التبعية أمراً طبيعياً تحتمه عملية التطور الحضاري عبر الزمن. **وسادساً**، بحكم تبعية الحضارة السابقة للحضارة اللاحقة فإن الحضارات التي يتم تجاوزها تفقد قدراتها على تحدي الحضارات اللاحقة أو محاكاتها في أي مجال من مجالات الحياة. وهذا يعني أن التطور الحضاري تجاوز مجتمعات عامة الدول النامية وثقافاتها وأنماط إنتاجها الرعوية والزراعية، ما جعلها تفقد صلاحيتها بالنسبة لعصري الصناعة والمعرفة.

تطورثقافات الشعوب النامية

في حديثنا عن تطور ثقافات الشعوب النامية سوف نركز على الثقافة العربية كمثال لما يجري في دول إفريقيا وآسيا ومعظم أمريكا الجنوبية. إن نمو سكان المدن في البلاد العربية بسرعة، واكتظاظ تلك المدن بسكان قدموا من أرياف وبوادي متباعدة ذات تقاليد وطرق حياتية غير متجانسة، جعلهم يشعرون بأنهم غرباء يعيشون في أماكن غريبة؛ وهذا جعل من الصعب عليهم تطوير طرق حياة تجمعهم حول منظومة ثقافية واحدة، والحفاظ على ما كان لديهم

من ثقة تقليدية. لذلك لم يعد بإمكان الثقة التقليدية السائدة في الأرياف أن تقوم بوظائفها المعتادة، فالجيران لا يعرفوا بعضهم بعضاً، والأقارب والأصدقاء تشتتوا في مدن متباعدة وأحياء مختلفة. وفي الوقت ذاته، تسببت ظروف الحياة المتغيرة وتزايد تعقيداتها من ناحية، وتخلف القانون والتشريعات وعجز الدولة عن تطبيق الموجود منها من ناحية ثانية، في تعذر توفير الحد الأدنى من الثقة الاجتماعية المطلوبة لتحقيق التنمية والازدهار.

تميل كافة الثقافات إلى التطور البطيء، والإقبال بتردد على الأفكار والقيم الجديدة. ولما كان التطور النوعي الذي عاشه العالم قد جاء أساساً نتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي والفكري الذي أفرزته تجربة الغرب الحضارية، فان الجديد من الأفكار والقيم والسلوكيات أصبح بالنسبة لغالبية شعوب العالم مستورداً وليس أصيلاً. وهذا جعل توجه تلك الشعوب نحو رفض الكثير من الأفكار والقيم والمواقف الغربية يبدو محاولة للحفاظ على ثقافة تلك الشعوب وليس هروباً من تحديات العصر العلمية والتكنولوجية. وبسبب ارتباط الفئات المثقفة والحاكمة والثرية في الدول النامية بالغرب بروابط مصلحيه أو ثقافية، فان تطور فئات المجتمع لم يكن متناسقا. إذ فيما اتجهت القلة إلى تقليد الغرب والتكيف لمتطلبات المستورد من قيم وأفكار، اتجهت الأكثرية إلى التمسك بالقيم المتوارثة، واتباع العادة والتقليد ومقاومة المستورد من عناصر ثقافية. وفي حالات عدة، تسببت الروابط الثقافية والمصلحية التي تربط بعض الفئات الاجتماعية مع الخارج، وعمق معتقدات البعض الدينية في الداخل في انقسام المجتمع إلى معسكرين لا يلتقيان، أحدهما يميل إلى رفض المستورد الثقافي، والثاني يُقبل على المستورد بحماس، ما جعل المجتمع يصبح كياناً مشوّه الشخصية، مختل التوازن، وعديم القدرة على تحديد مرجعياته الفكرية وأهدافه وقضاياه المجتمعية.

تتكون الثقافة العربية من عناصر مستمدة من عصري القبلية والزراعة، ما يجعل مكونات هذه الثقافة من عادات وتقاليد وأعراف وطرق تفكير ومواقف وقيم وأساطير شعبية وحكم موروثة عناصر تجاوزها الزمن منذ قرون؛ وبالتالي لا تصلح لمجتمع يتطلع إلى العيش في عصر الصناعة أو المعرفة. مع ذلك لم تستطع المكونات الثقافية هذه على الرغم من تخلفها أن تبقى على حالها، إذ تم تشويهها بفعل عدة عوامل؛ كان أولها هو اكتشاف النفط في أكثر بقاع العالم العربي تخلفا، وكان الثاني هو ظهور الدولة الوطنية (القُطرية)، وكان الثالث هو طغيان ثقافة الاستهلاك على ثقافة الإنتاج. إذ فيما تسبب اكتشاف النفط في دول عربية متخلفة علميا وثقافيا في حدوث ردة ثقافية أعادت العرب قرونا إلى الوراء، تسبب توفر المال بكثرة لدى الدول المصدرة للنفط في تمكين معظم سكان تلك الدول من شراء مستلزمات الرفاهية من دون إنتاج أي شيء في المقابل. وهذا تسبب في فصل ثقافة الإنتاج عن ثقافة الاستهلاك، إذ لم يعد الحصول على منتجات العصر الترفيهية والاستهلاكية يوجب المشاركة في العملية الإنتاجية. أما

ظهور الدولة القُطرية فقد تسبب في تفتيت الثقافة العربية، وتشجيع النخب الحاكمة والمنتفعين من قُطرية الدولة على الادعاء بأن لكل شعب ثقافته الخاصة، واستخدام وسائل الإعلام للترويج لخصوصية الدولة وإضعاف أواصر ترابطها مع غيرها من شعوب ودول عربية.

أما عملية التشويه فقد تسللت مع شيوع النزعة الاستهلاكية التي كانت سببا رئيسيا في توجه قطاع كبير من كل شعب عربي نحو المادة، يُحركه الجشع فيما يدفعه حب المال إلى جمع المزيد من الثروات وتكديسها، غالبا بغض النظر عن الوسائل المستخدمة والتبعات المحتملة. لذلك كثيرا ما يلجؤ الأثرياء والأقوياء إلى التحايل على القانون واستغفال الفقراء والجهلة من عامة الناس واستغلالهم دون رحمة أو واعز من ضمير. ولما كان الكثير من أثرياء العرب قد حصلوا على المال بطرق مشبوهة أو غير مشروعة، فقد كان عليهم أن يبرروا سلوكياتهم هذه بالادعاء بأنها تعكس ذكاء وحنكة، ومعرفة "من أين تُؤكل الكتف". وهذا تسبب بدوره من ظهور العنجهي العربي، ما جعل معظم أثرياء هذا العصر ينظرون إلى الفقير والضعيف نظرة استعلائية لا تعترف بحقوقه، وتستهزئ أحيانا بكرامته. وهذا أدى إلى تجزئة العرب إلى فئات متباينة من حيث الدخل والثروة والقوة والمكانة الاجتماعية والانتماء العقائدي.

العنجهية هي موقف من الذات والآخر يقوم على أساس أن الذات مُتفوق على الآخر من النواحي الأخلاقية والعلمية والفكرية، وبالتالي أكثر فهما وذكاء منهم حتى وإن كان جاهلاً؛ لذلك من حقه أن يتمتع بحقوق أكثر ومكانة اجتماعية أفضل من غيره. وتتكون العنجهية من عنصرين أساسيين: الجهل والقوة. وفيما يدفع الجهل العنجهي إلى محاولة إخفاء جهله، تمكنه القوة التي يملكها من تأكيد تفوقه باستخدام قوته لكبت الآخر ومصادرة حقوقه والهيمنة عليه. أما مصدر القوة فهو إما مال وفير، أو قوة عسكرية غاشمة. وعلى سبيل المثال يتصرف معظم الحكام في الدول النامية بعنجهية بسبب ما لديهم من أموال وعساكر تمكنهم من كبت الشعوب ومصادرة حقوق المواطنين وإرادتهم، وشراء ضمائر بعض المثقفين في بلادهم. أما الفرد الذي يحمل الجهل في رأسه والمال في جيبه فيقوم عادة بشراء الناس وإذلالهم خاصة المرأة، فيما تقوم الدولة التي تتصف بالعنجهية مثل أمريكا بالادعاء بأن خبرائها هم الأعلم بشؤون كافة الدول والشعوب، واستخدام الرشوة السياسية والقوة العسكرية لتحقيق أهدافها على الساحة الدولية. والويل كل الويل للفقير والضعيف من الدول والشعوب والجماعات والأفراد حين يكون خصمهم أو الطامع بهم يجمع بين الجهل وقوة المال والعسكر في آن واحد.

الثقافة العربية التي نعرفها اليوم هي ثقافة انتقالية تعيش مرحلة تحول غير صحية وغير هادفة وغير منتجة، وذلك لأنها فقدت جذورها الثقافية القبلية والزراعية، كما فقدت ما كان لديها من ثقة تقليدية. وهذا يجعلها عاجزة عن تكوين رأس مال اجتماعي بإمكانه توفير الحد الأدنى من متطلبات النهضة والتقدم. لقد تسبب إخفاق العرب في

الانتقال إلى عصر الصناعة في بقاء الثقافة العربية، شأنها شأن المجتمعات العربية، تُراوح في مكانها، تتحول ببطء وتسير في اتجاهات متضاربة، ليس تحت تأثير نمط الإنتاج الصناعي، وإنما تحت تأثير نمط الاستهلاك الذي أشاعه النظام الرأسمالي، وعززته التوجهات المادية العربية. ومع فقدان الثقافة العربية لسماتها الزراعية والقبلية القديمة، من دون أن تكتسب ثقافة الإنتاج الصناعية الغربية أو الآسيوية، تكون الثقافة العربية قد فقدت صلاحيتها ومبرر وجودها. لذلك أصبحت الثقافة العربية في أمس الحاجة لتحولات جذرية في القيم والمواقف وطرق التفكير كي تتجاوز عشائرية المجتمع الزراعي وقبلية المجتمع البدوي والنزعة الاستهلاكية وعبادة المال، وتقوم بتطوير قيم جديدة تحترم العمل والوقت والحياة والحرية والآخر وثقافة القانون.

إن مفردات التضاد في اللغة العربية مثل تعابير الخير والشر، الإيمان والإلحاد، الحلال والحرام، الصديق والعدو، الصدق والكذب هي جزء من التراث الديني والقبلي. وبسبب عمق جذور هذه المفردات في اللغة العربية، أصبح من الصعب أن يخرج مثقف عنها، ما جعلها تنعكس على مواقف غالبية المثقفين العرب وأفكارهم. وهذا جعل من الصعب على الإنسان العربي عامة أن يُفرق بين وجهة النظر وصاحبها، كما جعل من الصعب عليه أن يدرك معنى الوسطية في الحياة بشكل عام. وفيما يلي سوف نتحدث بإيجاز عن بعض القضايا التي تسهم في تخلف الثقافة العربية وتكشف أوجه تخلفها.

المال: المال هو أحد أهم مصادر القوة التي استحوذ عليها الإنسان في الماضي والحاضر بسبب تأثير المال على مواقف البشر وسلوكياتهم، وقابليته للتوظيف في أمور شتى. إذ في الوقت الذي يتم فيه توظيف المال في دفع بعض المجتمعات نحو تحقيق التقدم، يتم توظيفه أحياناً أخرى في نشاطات ينتج عنها تكريس التخلف. وعلى سبيل المثال، قامت إسبانيا في القرن السادس عشر بإبادة معظم سكان أمريكا الجنوبية الأصليين ونهب ثروات تلك القارة من الذهب والفضة. لكن سيطرة الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها المتزمتة على إسبانيا قاد إلى توظيف الثروات المسروقة لتكريس تخلف إسبانيا؛ إذ بقيت إسبانيا متخلفة وفقيرة حتى جاءت دول السوق الأوروبية لانتشالها من البؤس والفقر والدكتاتورية في النصف الثاني من القرن العشرين. وفي المقابل أُستخدم المال في أمريكا الشمالية والعديد من دول أوروبا الغربية في تحقيق التقدم في مجالات حيوية مثل التعليم والبحوث العلمية ودعم الجامعات والنشاطات الثقافية والأدبية والفنية.

ولما كانت أموال النفط العربي قد تكدست في أيدي دول وفئات اجتماعية يغلب عليها طابع التزمت الديني والتخلف العلمي والثقافي، فإن المال أُستخدم في الترويج لوجهة نظر دينية سلفية أسهمت في تكريس تخلف العرب، بدلاً من أن تُسهم في تحريرهم من فكر الإقصاء والتكفير. لذلك اتجهت معظم تبرعات أثرياء النفط إلى دعم مدارس

تحفيظ القرآن وتشييد المساجد ونشر الفكر السلفي الذي يعمل على كبت حرية الفكر والرأي، ومصادرة حرية المرأة وحرمانها من حقوقها. ومع تطور تكنولوجيا الاتصالات عبر الأقمار الصناعية، فإن أموال النفط تمكنت من الهيمنة على العملية الإعلامية وتوظيفها لتكريس التوجهات الدينية السلفية، ونشر الأفكار الظلامية والخرافات التي تتنافى مع العقل والمنطق والعلم.

من ناحية ثانية، جاء وصول أموال النفط إلى العالم العربي في الوقت الذي كانت فيه الدول المصدرة للنفط تعاني ارتفاع نسب البطالة والأمية، ما فرض على حكوماتها أن تتحرك في اتجاهين: أولاً، خلق ملايين الوظائف للعاطلين عن العمل والأميين في مجالات حكومية، مع عدم تطبيق نظم عمل تجبر العامل والموظف على القيام بواجباته على أكمل وجه. وثانياً، استيراد ملايين العمال والموظفين من بلاد عربية وأجنبية - أطباء ومهندسين ومدرسين، ومدراء شركات تجارية ومصانع وبنوك ومصافي بترول وشركات تأمين ومقاولات، وعمال يقومون بتنظيف الشوارع والخدمة في البيوت والمكاتب الحكومية والخاصة. ولما كان لكل عامل وموظف عائلة في دولته التي هاجر منها، وأنه يقوم بدعمهم مالياً، فإن عشرات الملايين من العرب اكتشفوا فجأة أن بإمكانهم شراء ما يروق لهم من بضائع من دون المشاركة في عمليات إنتاجية. إلى جانب ذلك، قامت الدول العربية الثرية بتقديم معونات مالية وقروض سخية للدول الفقيرة بهدف مساعدتها على التنمية والنمو، إلا أن معظم تلك الأموال تمت سرقتها من قبل النخب السياسية والاقتصادية المهيمنة على البلاد؛ وهذا جعل المال يُسهم في نشر الفساد وتوسعة الفجوة بين الفقراء والأثرياء. ومع شيوع عولمة الاقتصاد والثقافة، تحول العرب بسرعة إلى مجتمع غريب لا يدرك مغزى العلاقة بين الاستهلاك والإنتاج؛ إذ في الوقت الذي لم يكن بإمكان الأوروبي شراء ما يروق له من بضائع من دون أن يعمل ويكسب المال الذي يحتاجه لدفع ثمن ما يشتريه، أصبح بإمكان عشرات الملايين من العرب شراء ما يروق لهم من دون أن يعملوا يوماً في حياتهم، لأن ذويهم العاملين في دول النفط والمهاجرين في أوروبا وأمريكا وكندا وغيرها من دول يتكفلون بإمدادهم بما يحتاجون إليه من أموال لإشباع رغباتهم وشهواتهم.

التقاليد التربوية: إن إلقاء نظرة سريعة على موقع الفرد العربي من المجتمع، ومحاولة عابرة لتتبع مسيرة حياته اليومية تُظهر أن العربي لا يتمتع ولو بجزء بسيط من الحقوق التي يتمتع بها نظيره في مجتمع غربي. ويعود سبب ذلك إلى طبيعة الثقافة الشعبية السائدة في المجتمعات العربية، وطريقة تربية الفرد في العائلة التقليدية. إذ في الوقت الذي يولد فيه الطفل وينمو في أحضان عائلة حنونة في معظم الأحيان، فإن حنان العائلة يحرم الطفل والشاب والمرأة عادة من معظم حقوقهم، وفي مقدمتها فرصة التحرر من الوصاية العائلية التي لا تقل قمعاً في بعض الحالات عن الوصاية الاستعمارية. وفي الواقع، قد يعيش الفرد العربي حياته كاملة وهو يفكر في كيفية أداء

الواجبات الاجتماعية الملقاة على عاتقه، كإطاعة أوامر الأب والأم، واحترام من هو أكبر منه سناً وأكثر ثراء وسلطة، ومن الخوف من أستاذ المدرسة والشرطي والدولة ورجال مخابراتها، ناهيك عن الخوف من رجال الدين وفتاواهم القمعية. وفي غياب الحرية تزدهر عادة الكذب وتستحوذ مع الأيام على شرعية ثقافية غير منقوصة.

إن للكذب أسباباً كثيرة ودوافع عديدة لا يمكن حصرها، لكن السبب الذي تنبثق عنه كافة دوافع الكذب هو انعدام الحرية الشخصية. فحين يشعر إنسان بأنه لا يملك ما يكفي من الحرية ليقول ما يريد ويفعل ما يريد أمام الناس من دون خوف أو حرج، يصبح لزاماً عليه أن يتنازل عما يريد أن يقول ويفعل، أو أن يلجأ إلى الكذب لإخفاء مشاعره وإنكار تصرفاته غير التقليدية. ولما كان انعدام الحرية هو حالة شائعة في كافة المجتمعات العربية، فإن الكذب أصبح صفة تلازم كل فرد تقريباً، خاصة الأبناء في مواجهة الآباء، وطلبة المدارس والجامعات في مواجهة الأساتذة، والشعب في مواجهة السلطة، وجيل الشباب في مواجهة جيل الشيوخ، والليبراليين في مواجهة العقائديين.

إهمال الوقت: يشير التاريخ إلى أن الشعوب التي تعاملت مع الوقت باعتباره شيئاً ثميناً كانت هي الأقدر على استثماره، والأكثر إنجازاً وتقدماً من النواحي المادية والمعنوية. فالشعوب التي اتجهت إلى استخدام الوقت المُتاح بكفاءة، وقامت بالاستفادة منه بقدر الإمكان استطاعت أن تنتج المزيد من السلع والخدمات والعلوم والفنون والآداب، ما جعل حياة الناس فيها أكثر متعة وأمناً؛ وهذا عزز قدراتهم على مواجهة التحديات الآنية والمستقبلية. أما الشعوب التي اتجهت إلى إهمال الوقت وعدم الاكتراث به، فإن الوقت أهملها، ما جعلها تتخلف عن الزمن وتعاني التخلف بأبعاده الثقافية والاقتصادية والسياسية والعلمية والبيئية؛ وهذا تسبب في إضعاف قدراتها على التمتع بحياتها وتحقيق التقدم الذي تتمناه. وفي ضوء محدودية الإمكانات العلمية والتكنولوجية التي تملكها الشعوب الأقل نمواً وعلماً، فإن تلك الشعوب فقدت القدرة والإرادة على مواجهة التحديات، ما دفع غالبيتها إلى الاستكانة والقبول بالتخلف والتبعية للغير من الدول. لذلك فشلت كافة الشعوب التي أهملت الوقت في الحفاظ على موقعها بين شعوب العالم، ولم يعد بإمكانها أن تنظر إلى المستقبل بأمل وتفاؤل.

وعلى الرغم من أن غالبية شعوب العالم أصبحت اليوم قادرة على وعي أهمية الوقت، فإن معظم المجتمعات الإنسانية، وعبر كافة مراحل التاريخ التي سبقت عصر الصناعة، لم تحترم الوقت أو تتعامل معه بإيجابية. إذ اتجهت كافة الشعوب القديمة إلى اعتبار الوقت عبئاً على المجتمع، والعمل على التخلص منه وقتله إن أمكن، وذلك بدلاً من التعامل معه كثروة مجتمعية توجب الاستثمار، واستغلال الفرص السانحة ضمن الوقت المتاح. نتيجة لذلك تمتعت شعوب الأزمنة القديمة بالمتعة إثناء قيامها بهدر الوقت وإضاعته، لكنها دفعت ثمناً غالياً فيما نالها من تخلف وفقر وضعف وتبعية لاحقا. وعلى سبيل المثال، تبذل الشعوب العربية من مالها وصحتها على نشاطات قتل

الوقت أكثر مما تنفقه على كافة النشاطات العلمية والفكرية والثقافية. لكن الوقت، وأن ضاع بالنسبة لبعض الناس، إلا أنه لا يتهاون مع من يقوم بإهماله، أو يُقلل من شأنه، أو يشكك في قدرته على التأثير في صنع المستقبل، فالوقت يهمل من يهمله، ويعاقب من يحاول هدر دمه، كما يفعل بأبناء الأمة العربية وأبناء إفريقيا وأمريكا الجنوبية.

لقد تحول الوقت عبر الزمن، وذلك بفعل التطور الحضاري والوعي الثقافي والتقدم العلمي من كم مهمل إلى عبء مجتمعي، ومن عبء إلى ثروة شخصية ومؤسسية، ومن ثروة إلى أكثر الثروات ندرة وقيمة. وهذا ما جعل طرق استخدام الوقت واستغلاله تغدو من أهم العوامل المؤثرة في تنمية قدرات الفرد، وتراكم المعارف والثروات في المجتمع، وتحديد موقع كل شعب من غيره من الشعوب والتاريخ. لهذا أصبحت الفجوات العلمية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والصحية التي تفصل مختلف الأمم عن بعضها بعضا تعكس تباين نظرة الشعوب إلى الوقت والعمل، وتفاوت قدراتها على استثمار الوقت والتجاوب الفعال مع استحقاقاته.

إن إخفاق العرب في دخول عصر الصناعة، جعل الثقافة العربية السائدة ثقافة زراعية مع بعض التقاليد القبلية والتشوهات الاستهلاكية. لهذا نلاحظ أن نظرة العرب إلى الوقت تتصف عموماً بالسلبية، وذلك على الرغم من تقلص المجتمع القبلي كثيرا، وتراجع نسب العاملين في قطاع الزراعة، وتزايد نسب العاملين في الخدمات من سكان المدن. لكن هجرة أهل البادية والفلاحين إلى المدن تسبب في "ترييف" بعض المدن العربية، كما هو الحال في مصر والمغرب ولبنان والسودان، و"تعشير" مدن أخرى كما هو الحال في دول الخليج العربية والأردن. فسكان المدن العربية عامة يعيشون اليوم ثقافة القرية أو العشيرة، أو ثقافة هجينة تختلط فيها ثقافة المدينة مع ثقافتي الريف والبادية. ويعود السبب في ذلك أساساً إلى اتجاهِ الدولة إلى إهمال الأرياف والبوادي، وتركيز الخدمات التعليمية والصحية والوظائف الحكومية في المدينة. إذ تسببت هذه السياسة في نزوح القرويين والبدو بأعداد كبيرة إلى مدن لم تكن مستعدة لاستقبالهم، وليس باستطاعتها استيعابهم. ونتيجة لهذه التطورات، بقي المجتمع العربي أميناً على ثقافته القروية وتقاليده العشائرية، ومواظباً على التفنن في إضاعة الوقت وهدر دمه.

ويشير واقع الحال إلى أن الفرد العربي، بغض النظر عن ثقافته ومستوى تعليمه والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها والمهنة التي يزاولها، يبدو عاجزاً عن وعي أهمية الوقت والعلم وصنع المستقبل. من ناحية ثانية، تقوم الالتزامات الاجتماعية التقليدية والأعراف العشائرية والقيم التراثية بحرمان الإنسان العربي من الالتزام بموعد مع غيره، بل لا تسمح له أحياناً بترتيب برنامج يوم واحد والالتزام به. كما أن هناك بعض الأفكار الدينية والكثير من العادات والخرافات المتوارثة التي تشجع الإنسان على الكسل والتواكل، فيما تعزو النجاح والفشل والكوارث إلى

الحظ والقضاء والقدر، وهذه تقاليد وقناعات تُعفي الإنسان العربي عامة والمؤمن خاصة من مشقة التفكير في المستقبل، كما تعفيه من تحمل مسؤولية ما قد يرتكبه من أخطاء وحماقات بسبب الجهل وضعف الوعي.

إن غياب الثقة بسبب شيوع الكذب يُضعف قدرات المجتمعات العربية على بناء رأس مال اجتماعي بإمكانه قيادتها نحو التنمية والنهوض. فالكذب والنفاق والتملق والخداع والتحايل على القانون، والحسد والغيرة والجشع والاستهتار والفساد، هي أمور لا تُصلح ثقافة ولا تبني إنسانا أو وطناً، بل تهدم ما هو قائم من قيم ومؤسسات فاعلة، وتُفسد ما يكون قد تبقى من أخلاق حميدة فيما تسهم في تقويض أسس العدل والحرية في كل مجتمع تتفشى فيه. وفي ظل هذه الأجواء القاتمة، ترتفع بعض الأصوات المنادية بالعودة إلى التراث والماضي بدلاً عن التعلم من تجارب الشعوب التي تمكنت من النهوض وتحقيق التقدم. وإذا كانت العودة إلى الماضي لا يمكن تحقيقها إلا بإعادة خلق ظروف الماضي التي لا يمكن خلقها، فإن كل من يطالب بالعودة إلى الماضي يسير في حقيقة الأمر نحو لحظة تجاوزها الزمن منذ أمد بعيد. وليس على من يشك في هذا الرأي إلا أن ينظر إلى حال المجتمعات القبلية التي تعيش اليوم في إفريقيا وما تعانيه من تخلف وفقر وبؤس. فالزمن لا يعود إلى الوراء أبداً، والتاريخ لا يعيد تكرار نفسه، ومن يتخلف عن قطار الزمن يحكم على نفسه بالفقر، وتفوته فرصة السفر على أجنحة الحرية والكرامة والتقدم.

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 61 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقي باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2017 : إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد الكتب المنشورة بالإنجليزية، وعنوانه "تاريخ العنصرية" تُرجم إلى 6 لغات أخرى: الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل 3 مجموعات شعرية، 3 روايات، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

يرأس الدكتور ربيع مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970من جامعة هيوستن في أمريكا. حاز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية، إضافة لعدة جوائز أخرى من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

Links that give an idea about me and my interests.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2

https://www.encyclopedia.com/arts/culture-magazines/rabie-mohamed

Personal site; www.yazour.com